الاسلام والقومية العربية

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

إذا رجعنا إلى التاريخ فى فهم نشأة القومية العربية وجدنا أن القرن الأول من من حياة الإسلام كان المرحلة التى ولد فيها الوطن العربى الأكبر ، من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى : فإنه لم يكد ذلك القرن ينتهى حتى كانت مجموعة الأمم التى تعيش فى تلك الرقعة من الأرض قد أصبحت اسلامية الدين عربية اللغة ، وحتى كانت قد أستعدت لنشر الرسالة الحضارية التى تفجرت ينابيعها من قلب الصحراء العربية .

وإذا رجعنا إلى ما قبل الإسلام من التاريخ القديم لتلك البقعة من العالم لحظنا ظاهرتين جديرتين بالتسجيل : أولاهما أنها كانت مهداً لأقدم الحضارات الأنسانية ، والثانية أنها كانت مطلعا لشموس الديانات السماوية التى يدين بها الشطر الأكبر من سكان العالم .

فعلى أديم المنطقة الواقعة فى غرب أسيا وشرق افريقية نشأت الحضارات المصرية والبابلية والآشورية والآرامية والفينيقية ، ثم العربية التى نسجت من خيوط هذه الحضارات القديمة نسيجا حضاريا جديدا . ومن عبقرية أهل هذه المنطقة عرفت الانسانية الكتابة والورق ، واستعمال الآلات الزراعية وغيرها من وسائل المدنية ، وفى آثارهم الباقية كشف الباحثون عن أقدم السجلات لجهود البشرية فى التشريع والتفكير الدينى ، وفى التصوير الفنى والأدب الأسطورى ، ومن مدنيات هذه البلاد القديمة تعلم الأريون — وهم اسلاف الأوروبيين — فى انسياجهم نحو الغرب — أول دروس المدنية ، كما يعترف بذلك أكابر باحثيهم المعاصرين . وفى هذا يقول المؤلف الأمريكى المشهور « برستد » فى كتاب له بعنوان « انتصار الحضارة » ما نصه فى ترجمته العربية المنشورة :

« استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربى أوربا طريقة للكتابة بثلاثة الآف سنه . وكذلك استعمل المصريون وسكان غربى آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بواسطة السفن فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيلة من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت فى جذع الشجرة ومع هذا فهناك أمر اتفق عليه جميع الباحثين وهو أن مراحل الحضارة القديمة التى كانت أساساً لحضارتنا (أى حضارة الغرب) الحالية لم تنشأ فى قارة أوربا بل إنها تطورت فى الناحية أنها تطورت فى الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط فى كل من مصروغرب آسيا » .

ويقر مؤلف انجليزى فى كتاب له بعنوان « ميلاد المدنية فى الشرق الأدنى » .

أن بدء المدنية فى الشرق الأدنى كان حدثا ذا أهمية فريدة . ومن المتفق عليه أن مصر وأرض ما بين النهرين كانت أول بلاد ترتفع فوق المستوى العام للحياة البدائية . فهنا — وهنا فقط — نستطيع أن نتأكد أن التطور كان ذاتيا ، لم يكن منبعثا عن اتصال بأجانب أكثر ارتقاء . هذا إلى أن المدنيات التى نشأت فى وادى النيل وغربى آسيا تعتبر من وجهات كثيرة الأصول الأولى لمدنية الغرب .

والظاهرة الثانية أن الرقعة الوسطى من الشرق الأدنى كانت المنبر الذى أذيعت من فوقه رسالات السماء لهداية الناس ، والأفق الذى انتشرت منه أضواء الكتب المقدسه . وقد شاءت حكمة الله أن يجعل خاتم رسله من هذه البقعة ، وأن يختاره رسولا من صميم العرب ، وأن يجعل معجزته الباقية على الزمان كتابا عربيا مبينا ، وأن يجعل من لغة العرب الأداة الطيعة لنشر رسالة الإسلام ، ونسجيل معارفة وذخائره الفكرية طوال العصور .

على أنه من الثابت تاريخيا أن الصحراء العربية بدأت قبل الإسلام ترسل طلائعها إلى البيئات الحضارية المجاورة ، وتتصل بها اتصال هجرة وتجارة وحرب وسلام ، فاستقر كثير من قبائل البدو فى تلك الجهات ، وقامت لهم فى بعضها دول ذات نظام وملك : كالمناذرة فى العراق والغساسنة فى الشام . وبدأت فى القرنين

الخامس والسادس الميلاديين تتردد فى جنات البادية وما جاورها من الحاضرة أصداء لسان عربى موحد ، يرتجز به الشعراء ، ويهتف به الخطباء فكان ذلك إرهاصا بالمعجزة البيانية الخالدة التى صدق الله بها رسوله العربى ، وإيذانا بمولد مدنية عالمية راقية ، تزدهر مراكزها العربية الكبرى فى الحجاز والشام والعراق ومصر والمغرب والأندلس ، وتشع على معظم أنحاء العالم القديم أضواء من الهداية تنير لها طريق طريق الرقى ، وتهيىء لها وسائل النمو من الطفولة إلى الرشد الإنسانى .

وإذن فقراءتنا لتاريخ بلاد الشرق الأدنى تنتهينا إلى ثلاثة عوامل كان لها أثرها فى نشأة القومية العربية . الأول ما كان بين صحراء الجزيرة والبيئات المجاورة لها من اتصال فى القديم ، والثانى السبق الحضارى الذى جعل من بعض بلاد تلك المنطقة تربة صالحة لنمو مدينة عالية راقية ، والثالث الدين الذى اضفى على تلك المنطقة صفاء وروحانية ، ووضع لها أصول نهضة تشريعية وفكرية حديدة ، وأمدها بالأداة الثقافية الضرورية للرقى الفكرى والاجتماعى وهى اللغة الخصبة الموحدة .